البـــاب الأول

إبطال دعاوى التعصب

الفصـــل الأول

حركة الاستشراق

كما أنه لايمكن التحدث عن عالم هلينى قبل غزوة الإسكندر ، وعن عالم إسلامى قبل دعوة محمد .. كذلك لايمكن التحدث عن حركة استشراق بالمعنى الصحيح قبل بدعة رينان .

ولما كان الشرق قبل مجيء الإسكندر باليونانيات ، يموج بمكونات حضارة شرقية من ديانات ونِحَل كاليهودية اللاحقة على التوراة ، والمسيحية الشرقية ، والمانوية والزرادشتية .

وكانت جزيرة العرب قبل مجيء محمد بالإسلام تتطلع إلى بوادر انبعاث إلى نهضة دينية والوثنية فى مكة واليهودية فى المدينة والنصرانية فى الحيرة .

كان المجتمع الأوربى قبل ظهور رينان بالعنصرية يصطرع بشتى نزوات السيادة ونزعات الاستعمار ويتأهب لأداء « الرسالة البيضاء » أو رسالة الرجل الأبيض فى تمدين الشعوب المتخلفة ذوات الألوان . « ومهما يكن ، فإن الدراسة التى تتميز بالجد والعمق للإسلام لم تبدأ إلا منذ القرن التاسع عشر ، حين ذاعت ثقافة الشرق والإسلام فى أوروبا ، وحين أخذ الغرب يبسط سلطانه باسم الاستعمار على الشرق والبلاد الإسلامية »[1]

وتخور القوى المادية سياسية كانت أو حربية وتبقى واحدة هى القوة الروحية

---

(١) محمد يوسف موسى : العقيدة والشريعة فى الإسلام . ص التصدير

« قوة الإسلام » تلك التى تحرك الجموع الإسلامية فلا تفارقها القدرة على الصمود والكفاح ، وإن فارقتها فى الفوز والانتصار .

ويضج ممثلو الاستعمار بالشكوى من العقبات التى يقيمها الإسلام فى طريقهم إلى السيطرة والاستغلال : ففى الهند يشكو اللورد النبرو وعداوة الإسلام للاستعمار ووقوفه حائلاً دون ترويض الهند يقول : « لايسعنى أن أغمض نظرى عن حقيقة لاشك فيها وهى أن العنصر الإسلامى عدو أصيل العداوة لنا ، وأن سياستنا الحقة ينبغى أن تتجه إلى تقريب الهندين »[1] .

وفى تونس يواجه الاستعمار نفس المشكل ، وقال الوزير الفرنسى جبريل هانوتو : « وقد سبق لى حين نشأت دولتنا الأفريقية وتمت نشأتها أننى سألت حكومتنا وكررت السؤال كى تبحث فى علاقتها بالإسلام .. لأن الراغب فى الاستعمار من أبناء بلادنا يصل إلى الجزائر أو تونس أو السنغال فيجد نفسه فى اتصال مع العربى أو بعبارة أعم مع المسلم »[2].

وفى مصر يشكو اللورد كرومر من الدين الإسلامى لمقاومته الاحتلال وإذكائه الحركة القومية ، فيدعى – كقناع يدارى به فشله وكحيلة يرسى بها دعائم الاستعمار – فى كتابه عن مصر الحديثة عام ١٩٠٨ يدعى « أن الإسلام مناقض للحضارة ولايصلح لغير البيئة البدوية التى نشأ فيها ،وأن المسلم لايرجى منه أن يساير الحضارة الحديثة إلا إذا ترك دينه وخرج بذلك من ربقة التعصب والجمود » .

وكان « اللورد كرومر » يرمى إلى إدخال المسلمين فى إطار الحضارة الغربية الحديثة ويبرر مرماه بأن لاجديد فى ذلك ، وقد سبق للمسلمين أن دخلوا فى إطار الحضارة اليونانية القديمة . هذا فضلا عن تحمسه لثقافة اليونان ومنحه جائزة للمتفوق فى الكتابة باللغة اليونانية .

---

(١) عباس محمود العقاد : الإسلام والاستعمار (مقال) .

(٢) مقال عن الإسلام وعلاقته بالاستعمار ترجم عن جريدة الجورنال الباريسية ونشر فى جريدة « المؤيد » المصرية ورد عليه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

أما عن قناع الاستعمار ومناوراته باسم التمدين. والتنوير فندع المستشرق الإنجليزى الكبير « ويلفرد سكاون بلنت » يقول فيه مما كتبه إلى المؤتمر المصرى الذى تم انعقاده فى بروكسل : « إن سياسة حكومتنا فى لندن كشفت عن عداوتها للمسلمين ، فهى لاتريد بهم خيراً لافى مصر ولافى الآستانة ولافى بلاد العرب ولا فى إيران »[1] وكفانا من الشواهد والأدلة مايوقفنا على هذه الحقيقة وهى أن قد « كان رواد البحث الأولون فى الحضارة الإسلامية ، منشئها ، وتطورها ، وحقيقتها وكنهها ، ومنتهاها وأثرها وتأثيرها من المستشرقين والمبشرين الأوربيين ، وكان هذا « الزحف الصليبى الثقافى الأكبر » يسير جنباً إلى جنب مع « الزحف الصليبى السياسى الأكبر » بل يسبقه ويمهد له »[2].

وغاية مايقال فى موقف الدين الإسلامى بإزاء مطامع المستعمرين ومفترياتهم ، هو قول الأستاذ عباس محمود العقاد : « لكن المستعمرين إذا قصدوا بالوقوف فى طريق العقل والحضارة أن الإسلام يقف فى طريقهم ويعوقهم عن غايتهم ، فذلك هو الشرف الذى يرتفع له رأس الإسلام ، ويحق للمسلمين أن يرفعوا به رءوسهم بين الأمم ، وأن يحمده لهم كل من يصيبه الاستعمار بنكباته وإن لم يكن من المسلمين .

« إن الإسلام حقاً عدو الاستعمار ، وإن المستعمرين على حق فى الشكاية منه والنقمة عليه ، ولكن لحسابهم هم لا لحساب الإنسانية ولأوجههم هم لا لوجه الله »[3].

والذى يهمنا استخلاصه ، أن حركة الاستشراق قامت بقيام حركة الاستعمار وسارت معها جنباً إلى جنب كصديقتين متآزرتين وأختين رضيعتين مما حدا بنا إلى نعتهما معاً « بالغزو المزدوج » .

أما عن الغزو الثقافى الزاحف عن طريق حركة الاستشراق ، فيمكن تصنيفه

---

(١) عباس محمود العقاد : الإسلام والاستعمار .. مقال

(٢) على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام . ص التصدير .

(٣) عباس محمود العقاد : الإسلام والاستعمار . مقال .

تحت اتجاهين يصدران من نبع واحد ويتلاقيان عند غاية واحدة وإن افترق الطريق : الأول هو التعصب الجنسى ، والثانى هو التعصب الدينى ، وسنتكلم عنهما فى الفصل الثانى .

***

وقد بدأت حركة الاستشراق بصورة جادة فيها دراسة شاقة ، وفيها بحث متعمق منذ مطلع القرن التاسع عشر كما أسلفنا ، على أن القرن الثامن عشر وخاصة فى أواخره لم يخل من معارف قليلة عن الدين الإسلامى ورسالة محمد صلوات الله عليه ، ومن إلمام يسير باللغة العربية وباللغات الشرقية كانت مقصورة على الباحثين المنقطعين لدراسة الشرق وتراث الإسلام .

أما الجمهور الأوربى فلم يتجاوز فى معرفته بالشرق عن تصور كنوزه وأساطيره ، وعن تمثل سحره وأسراره .

وفى الوسع التكلم عن المؤرخ الألمانى بروكر المتوفى عام ١٧٧٠ م كأب لتاريخ الفلسفة من بعده تولدت أفواج المستشرقين على تباين أممهم واختلاف دياناتهم وتفاوت استعداداتهم . وكانت حركة الاستشراق مباراة اشتركت فيها عواصم أوربا وأمريكا . فأنشأت الجمعيات العلمية لتسهيل أعمال الكشف والبحث ، وعقدت المؤتمرات كأنها برلمان عالمى تبودلت فيه الآراء ، ونوقشت المسائل ووزعت الدراسات . وصدرت المجلات الخاصة بأعمالهم ، نشرت فيها دراساتهم وبحوثهم كما رسمت المناهج والطرائق ، فضلا عن نشر المخطوطات وتأليف المختصرات والموسوعات ومعالجة المسائل الخاصة والعامة .

وأفاد الغربيون والشرقيون على السواء من كنوز الشرق ونفائس العرب وذخائر الإسلام .. على أن قولنا بأن « حاصل حركة الاستشراق بعضه أنتج تجنياً موغلا ، وبعضه أثمر تعصباً ليس له مدى » لايمنعنا من أن نقول : « ولو لم يقيض الله لفلاسفة الإسلام جماعة من المستشرقين وقفوا عليهم بعض بحوثهم ودراساتهم ، لأصبحنا اليوم ونحن لانعلم من أمرهم شيئاً يذكر » [1].

---

(١) إبراهيم مدكور : فى الفلسفة الإسلامية . ص ٢٦

ومن أن نقول : « وإذا كنا ألمعنا إلى نزوات من الضعف الإنسانى تشوب أحياناً جهودهم فى خدمة العلم ، فإنا نرجو أن يكون فى تيقظ عواطف الخير فى البشر ، وانسياقها إلى دعوة السلم العام ، والنزاهة الخالصة والإنصاف والتسامح ، مدعاة للتعاون بين الناس جميعاً على خدمة العلم باعتباره نوراً لاينبغى أن يخالط صفاءه كدر »[1].

والآن :

وماهى نزوات الضعف الإنسانى هذه التى تفسد العلم وتحجب الحق وإن ادعت العلم والحق ؟!

---

(١) مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية . ص ٢٧

الفصل الثانى

التعصب الدينى والتعصب الجنسى

التعصب الدينى :

صحيح أن كل حركة الاستشراق أحاطت بكافة مرافق الحضارة الشرقية العربية الإسلامية ، بيد أن إحاطتها بمرفق الفلسفة ، واستيعابها لشتى أبواب المجال الفلسفى كانت على قدر من الاهتمام بالغ ، ونصيب من التفرغ غير قليل . ليس فحسب لأن الفلسفة هى أوسع نافذة يمكن أن نطل منها على هذا العالم الفسيح الأرجاء : عالم المشرقيات ، بل أيضاً لأن الفلسفة الإسلامية كانت لدى المستشرقين بمثابة الأرض الخصبة بذروا فيها بذور التعصب بنوعيه الدينى والجنسى كمبتدأ ينتهون منه إلى إضاعة العبقرية الإسلامية .

« ولقد وضعت الفلسفة الإسلامية موضع الشك زمناً ، فأنكرها قوم وسلم بها آخرون . وكانت موجة الشك فيها طاغية طوال القرن التاسع عشر فظن – فى تحامل ظاهر – أن تعاليم الإسلام تتنافى مع البحث الحر والنظر الطليق ، وأنها تبعاً لهذا لم تأخذ بيد العلم ولم تنهض بالفلسفة ، ولم تنتج إلا انحلالا موغلا واستبداداً ليس له مدى ؛ فى حين أن المسيحية كانت مهد الحرية ومنبت النظم النيابية ، وقد صانت ذخائر الفنون ، والآداب ، وبعثت العلوم بعثاً قويا ، ومهدت للفلسفة الحديثة وغذتها »[1].

وسوف نستعرض بعضاً مما قيل فى هذا السبيل ، ثم نتبعه بتبين كذبه المفترى ،

---

(١) إبراهيم مدكور : فى الفلسفة الإسلامية ص ٩

ونخلص إلى استبعاد فكرة التعصب الدينى كأساس علمى سليم لنبذ الفلسفة الإسلامية .

وداعى الدعاة إلى العصبية الدينية فى طول البلاد وعرضها هو المؤرخ الألمانى تنمان المتوفى عام ١٨١٩ م ، ومع أن الألمانى بروكر المتوفى عام ١٧٧٠ م سبقه إلى ذلك فقد تبلورت فى تنمان الخواطر والمشاعر التى كانت شائعة قبله على نحو مبهم مبعثر ، وأودع دعوته كتاب « المختصر فى تاريخ الفلسفة » [1] ذهب فيه إلى أن العرب من حيث طبيعتهم « شعب مجبول على استعدادات قوية وثابة » وأن الدين الإسلامى « هو دين شهوانى وعقلى معاً » وسم العرب بطابعه ، أكد هذا تفاسير أتباع محمد من الخلفاء « لما يزعمونه وحياً أوحاه الله إلى هذا النبى » كما ذهب إلى أن العربى المسلم إنما ينحصر امتيازه فى القدرة على النزال والقتال ، والدليل على ذلك أنه « فى قليل من الزمن تغلب العرب على قسم عظيم من آسيا وأفريقيا وأوروبا وأخضعوه للإسلام ، وقد أدى إلى هذا أنه « استمد حماسة دينية وحربية من دين محمد » .

فى حين أنه قاصر عن أى إنتاج فى مجال العقل الفلسفى ، والدليل على ذلك أنهم « لم يستطيعوا أن يصنعوا أكثر من شرحهم لمذهب أرسطو وتطبيقه على قواعد دينهم الذى يتطلب إيماناً أعمى » وكانت النتيجة أنهم « كثيراً ماأضعفوا مذهب أرسطو وشوهوه » أدى إلى هذا عدة عقبات أهمها فى الترتيب : « كتابهم المقدس الذى يعوق النظر العقلى الحر » و« حزب أهل السنة ، وهو حزب قوى متمسك بالنصوص » .

تلك هى دعوى تنمان المشحونة بشحنات العصبية الدينية والقائمة على أحكام مبتسرة ، بيد أنه ــ ولسوء الطالع ــ قدر لها أن تحيا زمناً لما كان لها من التأثير إن فى مؤرخى الحضارة ، أو فى مؤرخى الفلسفة منذ أوائل القرن التاسع عشر نازلا إلى العشرين .

---

(١) G. Tennemann: Manuel de L'histoire de la philosophe (tr. Tranc, par V. Causin) Paris, 1839, T. I, P. 356, 357, 358, 359.

فهذا هو الفيلسوف الفرنسى فيكتور كوزان المتوفى عام ١٨٤٧ م يمتد بحملة سلفه مع التمادى فى سورة التعصب والهوى . يقول فى كتابه « دروس فى تاريخ الفلسفة »[١] « المسيحية التى هى آخر ماظهر على الأرض من الأديان هى أيضا أكملها » ويقول « المسيحية تمام كل دين سابق ، وغاية الثمرات التى تمخضت عنها الحركات الدينية فى العالم وبها ختمت » ويقول : « الدين المسيحى ناسخ لجميع الأديان » .

وبعد هذه الدعاوى التى يرسلها الفيلسوف إعلاء لشأن المسيحية من حيث هى دين ، يرسل مثلها إعلاء لشأنها من حيث هى حياة .

يقول : « المسيحية التى كانت الحكومات النيابية ثمرة لها هى التى تستطيع وحدها أن تقوم هذه الصورة العجيبة من صور الحكم التى تؤلف بين النظام والحرية » ويقول « المسيحية أيضاً هى التى بعد أن صانت ذخائر الفنون والآداب والعلوم بعثتها بعثاً قوياً » ويقول : « المسيحية هى أصل الفلسفة الحديثة » ثم لايكتفى بهذا القدر بل يضيف : « كذلك كان الدين المسيحى إنسانياً واجتماعياً إلى أقصى الغايات » وكأن من الأديان ماهو غير إنسانى ولا لمجتمع ، أو ماهو إنسانى إلى أقصى حد وإلى الحد الأدنى .

ويقارن الفيلسوف بين دين السيد المسيح وغيره من أديان فيسأل « ماذا أخرجت المسيحية وجماعة المسيحيين للناس ؟ » الجواب « أخرجت الحرية الحديثة والحكومات النيابية » ثم يسأل : « وماذا أنتج الدين البرهمى والدين الإسلامى ، وسائر الأديان التى لاتزال قائمة فوق ظهر الأرض ؟ » ويجيب « أنتج بعضها انحلالا موغلا ، وبعضها أثمر استبداداً ليس له مدى » .

وما إن ينطوى القرن التاسع عشر آخذا معه هذين الاثنين : تنان وكوزان — حتى يطلع القرن العشرون آتياً بهذا الثالث جولد تسيهر المستشرق النمسوى المتوفى عام ١٩٢١ م .

---

(١) V. Cousin: Coure de L'histoire de la philosophie, Paris, 1841, T.I, P. 48-49.

وهو بلا مدافع أكبر من الاثنين خطراً وأوضح أثراً إن لم نقل عميد الباحثين فى الإسلاميات من الناحية الدينية على وجه التخصيص ، والروحية على وجه التعميم .

وأكبر بحث لجولد تسيهر ظهرت فيه قدرته على المقارنة ، وبراعته فى خدمة فكرته فتوج به تلك الحياة العلمية التى بدأت وهو « مستشرق فى السادسة عشرة » كتابه المشهور « محاضرات فى الإسلام »[1] ومؤداه : أن العقلية العربية سواء قبل أن تسلم أم بعد أن أسلمت – تمتاز على التحصيل السلبى دون طاقة على إخراج أمر إيجابى .

والتحصيل السلبى يقصد به امتصاص الأفكار الأجنبية وتمثلها وإخراجها فى صورة قومية وإقليمية مستورة خلف قناع من الكلمات لايلبث الباحث المدقق أن يميط عنها اللثام .

ويرى جولد تسيهر أن هذه الخاصية التى هى نسيج الثقافة الإسلامية المخاتلة وجهازها الفعال تتجلى فى كل منتجاتها مبتدئاً من القرآن ، والحديث ، والتفسير نازلا إلى الفقه والكلام والتصوف ، ماراً بالفرق والمذاهب والمدارس .

قال : « إن نمو الإسلام مصطبغ نوعاً بالأفكار والآراء الهليفستية ، ونظامه الفقهى الدقيق يشعر بأثر القانون الرومانى ، ونظامه السياسى كما تكون فى عصر الخلفاء العباسيين ، يدل على عمل الأفكار والنظريات السياسية الفارسية ، وتصوفه ليس إلا تمثلا لتيارات الآراء الهندية والأفلاطونية الجديدة الفلسفية .

« على أن من الحق أن نقرر أن الإسلام فى كل هذه الميادين قد أكد استعداده وقدرته على امتصاص هذه الآراء وتمثلها ، كما أكد قدرته كذلك على صهر تلك العناصر الأجنبية كلها فى بوتقة واحدة ، فأصبحت لاتبدو على حقيقتها إلا إذا

---

(١) انظر الترجمة العربية للكتاب للدكتور محمد يوسف موسى وزميليه بعنوان « العقيدة والشريعة فى الإسلام » .

حللت تحليلا عميقاً ، وبحثت بحثاً نقدياً دقيقاً ، وهذا الطابع العام يحمله الإسلام مطبوعاً على جبهته منذ ولادته » [1].

ويفصل جولد تسيهر ماأجمل مبتدئاً بمحمد والوحى :

فأما محمد من حيث هو نبى جاء يدعو إلى الإسلام « فلم يبشر بجديد من الأفكار ، كما لم يمدنا أيضاً بجديد فيما يتعلق بعلاقة الإنسان بما هو فوق حسه وشعوره وباللانهاية ، لكن هذا وذاك لاينقصان من القيمة النسبية لطرافته الدينية » [2].

وإذا كانت طرافة دين محمد فى قيمته النسبية ، فإن طرافة محمد نفسه فى إصلاحاته الإقليمية تلك التى لاتتعدى جزيرة العرب . الحق أن محمداً كان بلاشك أول مصلح حقيقى فى الشعب العربى من الو-جهة التاريخية ، تلك كانت طرافته برغم قلة طرافة المادة التى كان يبشر بها » [3]ذلك أن « القرآن نفسه لم يعط من الأحكام إلا القليل ، ولا يمكن أن تكون أحكامه شاملة لهذه العلاقات غير المنتظرة كلها مما جاء من الفتوح ، فقد كان مقصوراً على حالات العرب الساذجة ، معنياً بها ، بحيث لايكفى لهذا الوضع الجديد »[4]وبناء على ذلك فليس محمد نبياً للكل ولكن لفئة ، وليس دينه للعالم بل لإقليم .

وليته وقف عند حد مهاجمة النبى ، بل تعداه إلى مهاجمة الوحى عن طريق القول بوجود تناقض فى آيات القرآن التى يضرب بعضها بعضاً ، ومرجع ذلك إلى الحالات النفسية – الروحية التى كان يعانيها النبى قال : « ومن العسير أن نستخلص من القرآن نفسه مذهباً عقيدياً موحداً متجانساً وخالياً من المتناقضات . ولم يصلنا من المعارف الدينية ، الأكثر أهمية وخطراً ، إلا آثار عامة نجد فيها ـــ إذا بحثناها فى تفاصيلها أحياناً ـــ تعاليم متناقضة . ورسالة النبى الدينية تنعكس فى روحه بألوان مختلفة باختلاف الاستعدادات السائدة فى نفسه » [5].

---

(١) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ٥

(٢) المصدر نفسه : ص ٥

(٣) المصدر نفسه : ص٧

(٤) المصدر نفسه : ص ٣٩

(٥) المصدر نفسه : ص ٦٨

ويستطرد جولد تسيهر بالتفسير والتحليل فيقول ولما « كان عدم الاستقرار والطابع المتناقض البادى فى تعاليمه « موضع ملاحظات سافرة » [١].

ولما « كان وحى النبى حتى فى حياته ، معرضاً لحكم النقاد الذين كانوا يحاولون البحث عما فيه من نقص » [٢] ولما « كان يقع فى ضيق عندما كان المؤمنون يشيرون إلى تناقض عقيدى فى القرآن » [٣] فقد شرع منذ القدم فى البحث عن تناقض فيما بشر به » [٤].

وشروعه هذا كان بمثابة قناع للأهواء المتضاربة والاتجاهات المتناقضة التى استترت خلفه ، واختفت تحت ستاره .

هكذا تكلم جولد تسيهر عن محمد والوحى وبمثل هذا سيتكلم عن الإسلام والقرآن .

يقول فى تفسير معنى كلمة « إسلام » « الإسلام معناه الانقياد : انقياد المؤمنين لله » [٥].

والذى حدا به إلى هذا التفسير أن « هذه الكلمة تركز أكثر من غيرها الوضع الذى وضع فيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المؤمنين بالنسبة إلى موضوع عبادتهم (وهو الله) إنها كلمة مصطبغة ، فوق كل شىء ، بشعور التبعية القوى الذى يحس به الإنسان إحساساً قوياً أمام القدرة غير المحدودة ، التى يجب أن يخضع لها وينزل فى سبيل ذلك عن إرادته الخاصة ، هذا هو المبدأ السائد فى هذا الدين » [٦] بعد هذا يصدر جولد تسيهر هذا الحكم على الإسلام . ولعله كان مقدراً من قبل « لو أن الإسلام قد تمسك بشهادة التاريخ الحق تمسكا دقيقاً لوجد أنه لايستطيع أن يمد المؤمنين به بفكرة مثالية للحياة الأخلاقية وهى فكرة اتخاذ الرسول مثلا أعلى

---

(١) المصدر نفسه : ص ٦٩
(٢) المصدر نفسه : ص ٦٩
(٣) المصدر نفسه : ص ٧١
(٤) المصدر نفسه : ص ٦٩
(٥) المصدر نفسه : ص ٤
(٦) المصدر نفسه . ص ٤

واحتذائه »[1] « إننا اعتبرنا الدين الإسلامى مسئولا عن عيوب أخلاقية ومسئولاً كذلك عن ركود عقلى »[2].

ويصدر هذا الحكم على القرآن « هو فى مجموعه مزيج من الطوابع المختلفة اختلافاً جوهرياً ، والتى طبعت كلا من العصرين الأولين من عهد طفولة الإسلام »[3].

بمثل هذا تكلم جولد تسيهر عن الإسلام والقرآن ، وبمثله تكلم عن محمد والوحى ، وبأكثر من مثل هذا وذاك سيتكلم عن السنة والحديث .

قال فى بحث له بعنوان « العناصر الأفلاطونية المحدثة والغنوصية فى الحديث »[4].

« لسنا فى حاجة إلى إجهاد أنفسنا فى البحث كثيراً من أجل أن نسلم تواً بإمكان وجود عناصر أفلاطونية محدثة وغنوصية فى داخل هذه المادة الخصبة الغنية التى رويت على شكل أحاديث عن النبى ، بل الأحرى أن يقال إنه كان مما يثير الدهشة والعجب حقاً – مع ما فى الإسلام من خاصية هضم العناصر الأجنبية وتمثلها – أن تخلو وثائق الإسلام الدينية من تأثير الأفكار التى غرت المناطق التى امتد إليها الإسلام ، وانتشر فيها ، تلك الوثائق التى أخذ أصحابها الكثير من الثروة الروحية للوسط الذى هم فيه ، وجعلوه على صورة أحاديث للنبى » .

ويؤكد هذا المعنى فى بحث له عن مادة « فقه » فى « دائرة المعارف الإسلامية » .

يقول : « كان طبيعياً لهؤلاء الأميين – الخارجين من نظام اجتماعى ساذج إلى بلاد مدنية قديمة ليتبوءوا فيها مكانة الحاكمين – أن يتناولوا فى الحوادث المتولدة

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٥

(٢) المصدر نفسه : ص ٢١

(٣) المصدر نفسه ص ١٦

(٤) انظر الترجمة العربية للبحث للدكتور عبد الرحمن بدوى بعنوان « التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية » .

ماينا سب الحالة القائمة على الفتح ، ويلائم نزعات الدين الجديد من عادات القوم وقوانينهم » .

ثم يصل « تسيهر » من هذه التمهيدات إلى هذه النتائج « لم تندمج فى الحديث أمور القانون والعادات والعقائد والأفكار السياسية ، بل قد لف فيه كل مايملكه الإسلام من محصوله الشخصى ، وكذلك الأمور الغريبة عنه ، وقد غير هذا الغريب المستعار تغييراً أبعده عن أصله المأخوذ منه ، وضم ذلك كله إلى الإسلام » [1].

وإليك حيثيات هذا الحكم الذى أصدره جولد تسيهر « فهناك جمل أخذت من العهد القديم والعهد الجديد ، وأقوال للربانيين أو مأخوذة من الأناجيل الموضوعة ، وتعاليم من الفلسفة اليونانية ، وأقوال من حكم الفرس والهنود – كل ذلك أخذ مكانه فى الإسلام عن طريق « الحديث » حتى لفظ « أبونا » لم يعدم مكانه فى الحديث المعترف به ، وبهذا أصبحت ملكا خالصاً للإسلام بطريق مباشر أو غير مباشر تلك الأشياء البعيدة عنه » [2].

وبعد ، فهذا هو جولد تسيهر : غلو وإفراط لا رحمة فيهما ولا هوادة .

والآن قد بلغنا مبلغاً نقف منه على مدى حملات المستشرقين وغاراتهم على المشرقيات والإسلاميات ، وكشفنا عن حقيقة هذه الحركة فى قسمها الدينى ، وسنكشف الآن عن القسم الجنسى .

التعصب للجنس :

« ولم يقف الأمر عند هذا ، بل جاوزه إلى اعتبارات عنصرية قدر لها أن تجد سبيلا إلى ميدان العلم كما وجدته إلى ميدان السياسة . وأخذت المفاضلة بين الأجناس تضفى على العرب أوصافاً لم يقم عليها دليل من بحث أو دراسة . وأبعد

---

(١) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة فى الإسلام . ص ٤٢

(٢) المصدر نفسه : ص ٤٣

تلك الأوصاف عن المنحى العلمى ما اتصل بخصائص الشعوب وما آذن بالانتهاء إلى نتائج قاطعة « فى علم نفس الأجناس » [١]

وتتعدد الصور التى تظهر فيها الدعوى العنصرية بيد أنها تتوحد عند غاية قصوى هى أن الأوربيين من أى طريق وصلت إليهم هم الإنسان الكامل ، وهم خير من فى الوجود ، وهم السادة الأعلون أصحاب الحق فى تصريف شئون الوجود البشرى ، وأما من دونهم فهم المسودون الأدنون، ولاشىء عليهم سوى أن يسلموا أزِمَّتَهم قانعين راضين لهذه السلالة السعيدة من الرجال .

وأكبر دعاوى العنصرية هذه وأطيرها ذكراً هى دعوى الآرية والسامية ، تلك التى ذاعت وشاعت ولاكتها الألسن فى طوالع القرن التاسع عشر ، وكان أكبر دعاتها ولا أقول أولهم الفيلسوف الفرنسى إرنست رينان المتوفى عام ١٨٩٢ م وقد أودع رينان دعوته فى كتابه « التاريخ العام للغات السامية » [٢] وغاية مايرمى اليه هو « تصور العقل السامى عامة والإسلامى خاصة بعيداً عن الإبداع الفلسفى » ومؤداها :

أن « الوحدة والبساطة » تؤلفان طابعاً مزدوجاً طبعت به الروح السامية فى كل مقومات المجال البشرى .. فى تصوراتها الدينية ، وحياتها الاجتماعية والسياسية ، واستعداداتها العقلية والفنية واللغوية .

« إن الوحدة والبساطة هما الطابع الذى يميز الجنس السامى » [٣] ويفسر فكرته عن الوحدة فيقول : « إذا نظرنا إلى عمل الجنس السامى من خلال تاريخه العام ، يبدو لنا واضحا فى التبشير بالتوحيد وتأسيسه [٤] ومرد ذلك إلى « العقل السامى » الساذج فى تصوره للوحدة الإلهية « إن » دين الساميين الذين كانوا على الوثنية

---

(١) إبراهيم مدكور : فى الفلسفة الإسلامية ص ٩

(٢) E. Renan: Histoire Générale et système comparé des langues semitiques

(٣) Ibid, p. 18

(٤) رينان : المجلة الآسيوية ص ٢١٤

يطلعنا على سمات كثيرة لايتسنى تفسيرها إلا بتصور بدائى للألوهية .. ذلك التصور الذى كان ينطوى دائماً على فكرة الملكية المطلقة »[١].

وإلى « الوجدان السامى » الساذج فى تناوله للأمور « إن جميع خصائص هذا الوجدان تتلخص فى التوحيد وتفسر به . فهو ينطوى على التوحيد بشكل يدعو إلى الإعجاب ، ولايعرف الكثرة مطلقا »[٢].

ويفسر فكرته عن البساطة فيقول « إن العمل الرئيسى للساميين هو أنهم تمكنوا من تبسيط الفكر والعقلية الإنسانية ، وتخلصوا من الأشواك والتعقيدات التى كان يهيم فيها تفكير الآريين الدينى »[٣]ومرد ذلك إلى أن « الجنس السامى يبدو لنا فى كل مقوم من مقومات حياته كأنه جنس غير كامل ، وذلك لبساطته نفسها »[٤].

ويقول رينان : إن هذه الصيغة المزدوجة « الوحدة والبساطة » التى هى مفتاح الشخصية السامية ماكان لهذا الجنس أن يفاخر بها ، وقد جاءته عفواً ومن حيث لايحتسب .

فهى لم تنشأ « من جراء تفكير راتب فى الأمور الإلهية »[٥]ولا من جراء استدلال عقلى بطىء تأدى به رويداً رويدًا إلى فكرة أكثر نقاء عن العلة الأسمى[٦] ولا من جراء كشف أو تقدم نتج عن منهج علمى »[٧]وإنما هى انبعثت من أعماقه وفقاً لعوامل واستعدادات فى صميم الجنس نفسه . ومن ثم « فهى نتيجة استعداد جنسى خاص »[٨] وهذا الاستعداد الجنسى يرجع فى آخر الأمر إلى غريزة فطرية فى تركيبه البنائى دعاها رينان « غريزة التوحيد »[٩] انطلقت من صميمه فى صورة

---

(١) المصدر نفسه : ص ٤١٨

(٢) E. Renan: Histoire Generale

(٣) Ibid, p. 503

(٤) E. Renan: Histoire generale, p. 17

(٥) رينان : المجلة الآسيوية ص ٢٢٠

(٦) المصدر نفسه : ص ٢٢٥

(٧) المصدر نفسه : ص ٢٢٩

(٨) المصدر نفسه : ص ٢٢٩

(٩) المصدر نفسه : ص ٤٢٦

« إلهام فطرى »[1] أشبه مايكون بالإلهام الذى خلق الكلام فى الأجناس البشرية على تنوعها وتعددها .. فاللغة والدين ليسا وضعيين بل غريزيين « ففيما يتعلق بالدين ، كما فيما يتعلق باللغة ليس هناك شيء اسمه اختراع »[2] وهكذا يخلص رينان إلى أن العقلية السامية مفطورة من حيث الدين على التوحيد ، ومن حيث الفكر والفن واللغة على البساطة ، والعكس صحيح فيما يتعلق بالعقلية الآرية المفطورة فى تدينها على التعدد ، وفى سائر مرافق الحياة على انسجام التأليف .

وأخيراً يستغل رينان هذه النتيجة كمقدمة لنتيجة أهم يقول : « من الخطأ وسوء الدلالة بالألفاظ على المعانى أن نطلق على فلسفة اليونان المنقولة إلى العربية لفظ « فلسفة عربية » مع أنه لم يظهر لهذه الفلسفة فى شبه جزيرة العرب مبادىء ولا مقدمات ، فكل مافى الأمر أنها مكتوبة بلغة عربية »[3].

ألم أقل لك إن رينان قدر هذه النتيجة من قبل وهى « قصور العقل السامى بعامة والإسلامى بخاصة عن الإبداع الفلسفى » .

وما إن نخلص من رينان حتى يطلع لنا آخر هو العالم الاجتماعى الفرنسى الأستاذ Lapie

وقد كان لابى تلميذا مخلصاً لتعاليم أستاذه رينان هذا الأخير الذى كان لرأيه وزن فى تلاميذه ومعاصريه وهو أستاذ اللغات السامية والدارس للساميين فى بلادهم .

ومنهج لابى فى الوصول إلى « قصور العقل السامى بعامة والإسلامى بخاصة عن الإبداع الفلسفى » هو الدراسة المقارنة للروح الإسلامى والروح اليهودى والروح الأوربى كما تتمثل جميعاً فى رقعة واحدة هى العاصمة التونسية .

ووضع المشكلة بالنسبة المؤلف هو كالآتى :

---

(١) المصدر نفسه : ص ٤٢١

(٢) المصدر نفسه : ص ٤٢١

(٣) E. Renan. Histoire generale, p. 10

هل الجنس السامى ممثلا فى عنصريه الكبيرين : العربى واليهودى والذى يثور على كل تغيير ، ويعتز بكل قديم ، ويحافظ على كل ماهو من قبيل الإرث يبدو على درجة كبيرة من التعارض بالنسبة إلى الجنس الآرى وهو المولع بالتجديد والتغيير والتطوير ؟

على أن مسرح المقارنة هو العاصمة التونسية حيث تتواجد المجموعات الجنسية الثلاثة ، وعلى أن تتناول المقارنة كافة نواحى النشاط البشرى كالدين واللغة والفن والفكر والدولة والأسرة .

ويخلص لابى من مقارناته ، ويودع نظريته كتاب « الحضارات التونسية » (١).

يقول فيه : « يمكن القول بأن النفس العربية والنفس الإسرائيلية تطرد الواحدة منهما الأخرى ، أما طابع الأوربيين فلا حاجة بنا إلى وصفه لنتأكد من أنه لايشبه الطابع الإسلامى أو الطابع الإسرائيلى » (٢).

ويفصل القول فى التمييز بين فرعى الجنس السامى العربى واليهودى عن الجنس الآرى بفرعيه الهندى والأورى يقول : « إن النفس اليهودية متجردة بفطرتها صوب المستقبل ، فى حين أن النفس العربية متجردة بفطرتها صوت الماضى ، فهما متنافرتان ، والنفس الأوربية تختلف عنهما » (٣).

ولا يرغب الأستاذ لابى فى إرشادنا إلى مكان الأورى من زميليه الآخرين ، هل أيتوسط بينهما فيكون الحاضر مكانه ، أم تراه متطلعاً إلى مستقبله مسترجعاً ماضيه ؟ لم يقطع لابى برأى فى هذه المسألة واكتفى بأن قال : « إن طابع الأوربيين فى تونس هو نفس طابع الأوربيين فى أوربا فلا تمثل الروح الأوربية فروقاً هامة من حيث الاتجاهات الأساسية حتى نضطر إلى وصف تلك الروح » (٤).

---

(١) Lapie: Les Civilisations tunisiennes.

(٢) Ibid, p. 21.

(٣) Ibid, p. 19.

(٤) Ibid, p. 20.

ويزيد لابى تفصيلا فيما يتعلق بفرعى الجنس السامى إذ يقول : « المستقبل ، هذا هو مركز الدائرة الذى تنجذب إليه جميع نزعات الإسرائيلى فى تونس ، كما أن الماضى بالنسبة إلى روح العربى هو مركز الجاذبية الأوحد »[1].

ويحاول لابى أن يقرب الفرع الأورى الآرى من الفرع اليهودى السامى فيقول « إن الأورى بلاشك يفكر فى رفاهية المستقبل ، كما لايهمل التمتع بالحاضر »[2].

وبعد هذه المحاولة يقول : « إن المدنية الأوربية تجبرنا على التبصر »[3] وقياساً على ذلك يتحتم علينا القول بأن المدنية اليهودية تجبرنا على التبصر .

أما فيما يتعلق بالعربى فيرجع « إلى حب الماضى وعدم الاحتفال بالمستقبل ، عدم مقدرتهم على التبصر »[4] ويصرح رينان – زيادة على مافات – بأن الشعب اليهودى قد نجح دائماً ، بسهولة عجيبة فى استيعاب لغات الشعوب التى اتصل بها ، كما استوعب فنونها وعلومها ، بيد أن قوة إرادته التى لاتقهر ، وكبرياءه التى لايمكن التغلب عليها حفظاه من أن يذوب فى الشعوب الأخرى فاستوعب كل شيء ، دون يستوعبه هو شيء .

أما الشعب العربى فهو حَرِىٌّ باللوم لعدم تبصره ، وعدم حيطته ، وعدم محافظته على خلوص عقليته لانسياقه وراء الفلاسفة من اليونان .

وما إن نخلص من لابى حتى يطلع آخر هو المستشرق الفرنسى والعالم بالفلسفة الإسلامية الدكتور ليون جوتييه ، وقد حاول بدوره أن يصل إلى « تصور العقل السامى بعامة والإسلامى بخاصة بعيداً عن الإبداع الفلسفى » بيد أنه سلك طريقا آخر غير الطريقين اللذين سلكهما زميلاه ، وإن استقى من بعضهما وصب فى مصبهما .

اتجه جوتييه إلى مهد العقل العربى .. إلى الصحراء ، فوجدها وقد طبعت

---

(١) Ibid, p. 21.

(٢) Ibid, p. 20.

(٣) Ibid, p. 24.

(٤) Ibid, p. 269.

العقلية السامية بطابع أدى بها إلى الوقوف من الأضداد موقف الغير مجمع ، والغير مقارن ، والغير مركب ، ففقدت بذلك القدرة على الوصل بين الأضداد والجمع بين المتناقضات والربط بين الأطراف .. كل هذا بوسائط تدريجية لايكاد يحس التنقل فيها بحيث تخرج بوحدة فيها مزج متناسق ، أو نسق متناغم .

ثم يقول جوتييه بأن هذا الذى لم تفعله العقلية السامية ، قد فعلته العقلية الآرية ، ومن ثم حق على الأولى أن تسمى عقلية « مفرقة » وعلى الثانية أن تسمى « عقلية مجمعة » .

ومن هذه المقدمة يصل جوتييه إلى هذه النتيجة وهى أن الإسلام لما كان ديناً قوياً جداً فى ساميته ، وكانت اليونانية فلسفة قوية جداً فى آريتها ، كان لزاماً على الفلاسفة أن يوفقوا بين الحكمة والشريعة ، بين اليونانية فلسفة « الوصل » والإسلام دين « الفصل » ليخرجوا « الفلسفة اليونانية الإسلامية » وتلك المحاولة كانت بالنسبة إلى الفلسفة « مسألة حياة أو موت » .

وقد أودع جوتييه نظريته فى كتابه فى دراسة الفلسفة الإسلامية [1] وبدأ بحثه بامتحان مجموعة الشعوب التى تتألف منها الأسرة السامية وهى : العرب ، واليهود ، والآراميون ، والبابليون ، والآشوريون ، والفينيقيون وأخيراً الأثيوبيون . فوجد أنه لايمكن اتخاذها برمتها كنموذج سليم لتحديد ملامح الجنس السامى ، فهى إما مشكوك فى أصالتها أو أصابتها تغيرات عميقة أثرت فى طرازها الجسمى والمعنوى .

ثم اصطفى جوتييه الشعبين : العربى واليهودى « ولم يبق بعدما تقدم من تلك الشعوب إلا العرب اليهود » [2].

---

(١) Léon Ganthier, Introduction à L'étude de la Philosophie Musulmane

انظر الترجمة العربية للكتاب للدكتور محمد يوسف موسى بعنوان « المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية » .

(٢) جوتييه : المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية . ص ٥٧

ولما كان الفضل فى حماية العنصر العربى يرجع إلى الطبيعة الصحراوية ، فى حين أنه يرجع بالنسبة إلى العنصر اليهودى إلى الدين المغلق-آثر جوتييه أن ينتخب الأول كنموذج نهائى لجنسه « إذا ، بين يدينا قسم واحد ، وواحد فقط ، من الجنس السامى قد احتفظ بنفسه وخصائصه نقية بقدر ما فى الطوق ، ويمكن لهذا اتخاذه طرازاً للجنس السامى جميعه : هذا القسم هو الشعب العربى »[1].

ويؤثر جوتييه أن يلتقى بالشعب العربى فى مهده .. الصحراء .

وبعد تأملاته فيها ووصفه إياها بالتقلبات العنيفة ، والتغيرات العميقة ، والثورات الطارئة ، والانتقال المفاجئ من حال إلى حال ، فمن صيف قاس فى حرارته ، إلى شتاء قاس فى برودته « بل قد يجىء فى فصل واحد ليل ثلجى بعد نهار قائظ »[2] ومن « رياح السموم التى تدمر كل شىء »[3] إلى « خطر الموت غرقاً فى الصحراء »[4]، وصيحة الأعرابى أن « جاء الوادى »[5].

رأى جوتييه أنه لابد وأن يكون ثمة تجانس بين طبيعة الصحراء والعقلية العربية دعاه إلى وصفها « بالعقلية الصحراوية » فالجنس الذى تكون هذه البيئة مهده »[6]. يكون عادة « جنساً هادئاً وبليد الإحساس ، كما يكون « عرضة لأهواء نفسية فجائية » تؤدى به « إلى نشاط وقتى لا يقاوم » كما تؤدى به إلى أن يكون مضيافاً ونهاباً معاً ، وشرها وكريماً فيصدر عنه « أحياناً كرم تقليدى وأحياناً قسوة ووحشية » .. ومن ثم كان جنساً « جديراً فى آن واحد بالإعجاب واللوم » .

من هذا الذى تقدم يتعرف جوتييه على العلامة الخاصة ، والمميز الجوهرى للجنس السامى وهو « الميل نحو الأطراف ؛ ووضع النقيضين جنباً إلى جنب ، إما

---

(١) المصدر نفسه : ص ٥٩
(٢) المصدر نفسه : ص ٦٠
(٣) المصدر نفسه : ص ٦٠
(٤) المصدر نفسه : ص ٦١
(٥) المصدر نفسه : ص ٦١
(٦) المصدر نفسه : ص ٦٢

بتواليهما توالياً مفاجئاً ، أو بخلطهما من غير أن تفصل بينهما ألوان أخرى تعتبر متوسطات » [1].

« أما فى العقلية الآرية فالأمر بالعكس ؛ إذ أنها تنزع إلى الربط بين هذه وتلك بوسائط متدرجة ، فلا تنتقل من طرف إلى آخر إلا بدرجات لاتكاد تكون محساً بها بالقدر الممكن ، إنها تسير على نظام الألوان المذاب بعضها فى بعض » [2].

« وإذا ، فلْنُسَمِّ بالمذهب المفرِّق العقلية السامية ، العقلية العربية ، ولْنُسَمِّ بالمذهب المجمِّع أو الموحِّد العقلية الآرية » [3].

على أن جوتييه قد عزز نظريته بشواهد لاتحصى من جميع مظاهر النشاط البشرى من أدناها كالطهى والزينة والملابس والزيارات ، إلى أعلاها كاللغة والفن والدين ، والنظم اجتماعية وسياسية .

وأخيراً يصل جوتييه من هذه المقدمات إلى هذه النتائج :

لما كان الدين الإسلامى « دين سامى بحت : مفرّق ، وموحد بأضيق المعانى ، وغير عقلى ، ولايتفق والتفكير الحى ، وقليل الميل إلى التصوف » [4] ولما كانت الفلسفة اليونانية « فلسفة مجمعة ، حلولية ، عقلية ، حرة التفكير ، مثالية ، وتصوفية » [5]– كان « من المحال أن نتصور ديناً أكثر منه تعارضاً مع الفلسفة الإغريقية الآرية » [6].

« ولهذا وذاك اضطر الفلاسفة المسلمون إلى العمل للتوفيق بين هذين الضدين ، إذا كانوا مسلمين وفلاسفة هيلينيين » [7] ومن أجل ذلك « كانت محاولة التوفيق بين الفلسفة الإغريقية والإسلام ، على مافيها من صعوبة وعسر ، مسألة

---

(١) المصدر نفسه : ص ٦٨

(٢) جوتييه : المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية ص ١٠٥

(٣) المصدر نفسه : ص ١٠٦

(٤) المصدر نفسه : ص ١٧٦

(٥) المصدر نفسه : ص ١٧٦

(٦) المصدر نفسه : ص ١٧٦

(٧) المصدر نفسه : ص ١٧٦

حياة أو موت بالنسبة إلى الفلسفة ، فى عصر ابن رشد بصفة خاصة ، وفى عصر سائر فلاسفة الإسلام بصفة عامة أيضا »[1].

تلك هى حركة الاستشراق ، وأولئك هم المستشرقون .

أرأيت إليهم وقد عَبَّدوا كل الطرق لتؤدى إلى « قصور العقل السامى بعامة والإسلامى بخاصة عن الإبداع الفلسفى » .

فإذا جاز لنا أن نعد الآراء السابقة بمثابة آراء « الجماعة الكبار » من حيث إن أصحابها عاشوا الفكر الشرق العربى الإسلامى وزاروه ، فدرسوه دراسة مقارنة عمادها ما امتصه من أفكار أجنبية وما ولده من أفكار قومية ، كما درسوه دراسة تتبعية أساسها تتبع الآراء نبتاً ونمواً ونضجا ، وفى حضن البيئة الإسلامية ولدى المسلمين ؛ لأنها عندهم تلاقت ، وفى ديارهم عاشت ، وبروحهم طبعت وبلغتهم كتبت – جاز لنا أن ندعو الكثيرين من الآخرين بصعاليك الدعوة وفتواتها أو « الجماعة الصغار » من حيث إنهم تلقوها كما أنزلت ودون أن يقفوا منها على العنصر واللباب . وتكملوا فيها كمن يتكلم عن إيمان موروث ، أو كمن قبض على الحقيقة بجمع يديه .

من هؤلاء « كبلنج » شاعر « العلم والاستعمار » البريطانيين .

ومن بياناته التى هى أشبه ما تكون بورقة النعى من قصيدته المشهورة عن « العلم الإنجليزى » :

« الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولن يلتقى الاثنان ، حتى تلتقى الأرض والسماء بين يدى الله يوم الحساب » ومن أبياته الشائعة عن « الاستعمار البريطانى » :

« لاشرق هناك ولا غرب . ولاحد ولا معشر ولا ميلاد إذا التقى الجمعان وجها لوجه ، ولو أقبلا من أقاصى الأرض على إفراق » .

---

(١) المصدر نفسه : ص ١٨١

وكبلنج هو صاحب الدعوة القائلة بمسئولية « الرجل الأبيض » بإزاء الحضارة الحديثة ، وأن كل فرد من أفراد الأمم البيضاء مسئول عن سبعة أو ثمانية من أفراد الأمم ذوات الألوان التى نصفها طفل ونصفها شيطان .

وكان له الفضل الأكبر فى شيوع دعوى الاستعمار باسم « الرسالة البيضاء » أورسالة الرجل الأبيض فى تمدين الشعوب الملونة ، الصفراء والحمراء ، والسمراء ، والسوداء .

والرجل الأبيض هو المستعمر الأزرق بطبيعة الحال .

ولم تقف الهتافات عند هذا الحد بل جاوزته إلى أبعد على يد المؤرخ « ديورانت » مع استبدال نقطتى جنوب وشمال بشرق وغرب ، والمعنى فى التفرقتين واحد باعتبار القصد والغاية والاختلاف فى الأسماء . يقول فى مؤلفه الكبير الموسوم « قصة الحضارة » بعد أن تكلم عن غابر القبائل الآرية الشمالية فى سطواتها كالسيل دفاقاً كاسحاً لاتقف مجراه سدود فما هو إلا أن تقترب قافلة من الشمال حتى تسلمها القرى فى الجنوب أزِمَّتها ، وتفتح لها الأبواب على مافى غزواتهم من إذلال وبطش . يقول وقد استخلص هذا القانون فى فلسفة الحضارات : « وسيظل الشمال إلى الأبد ، يمد العالم بالحاكمين والمقاتلين ، والجنوب يمده برجال الفن والدين ، والجنة إنما يرثها الجبناء » فأنت ترى أن هذه تفرقة أخرى تشطر خلق الله إلى شمال وجنوب بعد أن شطرته من قبل إلى غرب وشرق ، ومن قبل إلى آرى وسامى ، ومهما يكن من أسماء فالمهم أن يكون الأوربيون فى الكفة الراجحة .. ونحن فى الكفة المرجوحة .

وأكثر من هذا وذاك ؛ فبعد أن اعتاد مؤرخو الحضارات وجمهور الكتاب أن ينعتوا الغرب بالمادية ، والشرق بالروحانية ، فيقال مادية الغرب ، وروحانية الشرق لاسيما والشرق مهبط الأديان الكتابية الثلاثة الموسوية والعيسوية والمحمدية — نجد كاتباً مثل « فنلبند » يطعن فى هذا المعنى ويجرى فى إثره كثيرون ممن فتنوا بكلماته ذات الشحنات العاطفية يقول « كما أن الغرب يفوق الشرق فى الماديات فإنه يفوقه أيضاً فى الروحانيات ، ألا تجد أن عاطفته أكثر رقياً ، وأن عنايته بالملاجىء والمستشفيات ، ورعايته سبل الإحسان أكثر ارتقاء ؟ » .

« فإن قصد بالروحانيات الخرافات والأوهام وما إلى ذلك من تحضير الجن وإقامة السحر فالشرق فيها أفضل من الغرب غير مدافع ، أما إذا قصد بها سمو العاطفة وأعمال البر والإحسان فذلك فى الغرب أفضل منه فى الشرق ، وبناء على ذلك يكون الغرب أرق فى الماديات والروحانيات فى آن معاً » .

وغاية التطرف فى هذه المزاعم والأقاويل ، تلك الجملة الشهيرة التى تنسب إلى المارشال « بيجو » والتى لامعنى لها سوى الأنانية القومية التى تجرى على وتيرة الأنانية الفردية ، ومع ذلك قدر لها أن تحدث أثراً ، يقول : « ضع عربياً وأوروبياً فى قدر واحد على النار ثمانية أيام ، فإنك واجد بعد هذا مرق كل منهما منفصلا عن مرق الآخر ! » .

وبعد كل مافات نرى العالم الألمانى « جوش » Gauch الذى قام بترويج الحركة العنصرية والهتاف لها فى عهد النازى ، فكانت هتافاته تسرى فى النفوس مسرى السحر ، فما هى إلا أن تدعو المواطن حتى يجيب ، وتستهديه فيلبى بواعث الأهواء . فهو يزعم أن الخصائص البشرية مقصورة على الشماليين ، وأن الأجناس الأخرى وسط بين البشر والقردة ، وربما كانوا أقرب إلى فصيلة القردة منهم إلى طبقة الآدميين .

قال « وإذا سأل سائل مابال غير الشماليين وهم أقرب رحماً إلى القردة يتناسلون من الشماليين ولايتناسلون من القردة ؟ فالجواب أن الدليل لم يقم بعد على أنهم وفصائل القردة لايتناسلون ! ، منطق لايروق أرسطو ، ولايروق الطبيعة الإنسانية ، ولكنه يروق التعصب والاستعمار ، ولذلك قدر له أن يحيا .

ألم أقل لك إن كل الطرق تؤدى إلى :

« قصور العقل السامى بعامة والإسلامى بخاصة عن الإبداع الفلسفى » ؟

الفصـــل الثـــالث

إنسانية .. لا آرية ولا سامية

هذه الدعوى – دعوى الآرية السامية – من أين نشأت ؟ وكيف ظهرت ، وما حظها من الصواب ؟ ودعاتها كيف دعوا إليها ؟ ومامقدار الشوط الذى قطعوه ، والمدى الذى بلغوه ؟

تلك أسئلة فى الإجابة عنها فهم لحقيقة حركة التعصب الجنسى ، وهى قريبة الشبه فى بواعثها من حركة التعصب الدينى التى أسلفنا الحديث عنها ، وباستكناه بواعث الحركتين تكتمل لدينا الأسباب المباشرة وغير المباشرة لهذا « الزحف الصليبى الأكبر » .

وتقسيم النوع البشرى إلى آرى وسامى يرجع من حيث التاريخ إلى القرن التاسع عشر ، ومن حيث المباحث العلمية إلى علم مقارنة اللغات الذى ظهر فى القرن نفسه ، ومن حيث الاشتقاق اللغوى إلى سام أحد أبناء نوح الثلاثة حسب رواية التوراة ، وإلى آريا اسم شعب نزح إلى الهند فى عصور ماقبل السيد المسيح بدين يدعو إلى الشرك ويسمى « الفيدا » وهو الذى صار فيما بعد دين البراهمة .

ولما كانت اللغة السنسكريتية هى لغة الفيدا ، أدى مابينها وبين اللغة الأوربية من تشابه فى الضمائر والأفعال والمفردات والمشتقات إلى تصنيفهما معا باسم اللغات الهندية الأوربية واعتبار جنس واحد هو الجنس الهندى الأوربى ، واعتبار الجرمان نواة هذه الدوحة الكبرى التى سميت بالدوحة الآرية .

كما أدى ما بين لغات الأمم التى يرجع أصلها إلى الجزيرة العربية من اشتراكها فى مصدر الفعل الثلاثى والتفرد به ، وتركيب معظم الكلمات الأصلية من ثلاثة

حروف . والاقتصار على ثلاثة حروف متحركة كثيراً ما يستغنى عنها فى العرف الدارج إلى تسميتها باللغات السامية ، وإرجاعها إلى جنس واحد هو الجنس السامى ، واعتبار العرب نواة هذه الدوحة الكبرى التى سميت بالدوحة السامية !

ومن مضاهاة الأبجدية الآرية بالأبجدية السامية ، ومن تصنيف الأنساب اللغوية التى يتعرف منها على أنساب الشعوب التى تتكلم بها نشأ علم اللغات المقارنة .

وبقى الاهتمام بدرس مسألة الآرية والسامية مقصوراً على علماء اللغات دون سواهم حتى رُئى ضرورة الاستعانة بعلم الأجناس الباحث علة أصول الشعوب ، خاصة وأن القول بوجود لغة آرية أصلية تفرعت عنها اللغات الهندية الأوربية يقتضى القول بوجود سلالة آرية ؛ إذ ثمة علاقة حتمية بين اللغة والسلالة . وبذلك دخلت مسألة العنصرية فى طور الدراسة العلمية وأصبحت مبحثاً من مباحث العلوم . وزعم العلماء أنهم يعتمدون على البراهين المادية : التشريحية ، والبيولوجية ، والفسيولوجية لتصنيف الأجناس البشرية والمفاضلة بينها . وظهرت فى فرنسا مابين بداية القرن التاسع عشر ومنتصفه مدرستان ، انطلقت منهما دعوى العنصرية عبر القارة الأوربية إلى العالم أجمع :

الأولى وهى المدرسة العلمية التى تعتمد على العلم المادى والتجربة الحسية .

والثانية وهى المدرسة الفلسفية التى تعتمد على النظر العقلى والمقارنة النظرية .

ويتزعم الأولى العالم جوبينو ، والثانية الفيلسوف رينان ، وكلاهما من فرنسا ، وكلاهما زميلان من فرنسا ، وكلاهما زميلان فى حركة الاستشراق .

وفى بادئ الأمر ، أذيعت فكرة الامتياز العنصرى باسم الجوبينزم نسبة إلى مذيعها العالم الأرستقراطى الفرنسى الكونت دى جوبينو بعد أن أودعها كتابه « تفاوت العناصر البشرية »[1] ومنه شاعت الفوارق بين الأجناس .. وأطلق المؤلف على الجنس الآرى اسم طوال الرءوس تمييزا لهم من أصحاب الرءوس المستديرة . وحصر فيهم من المزايا العقلية العليا ، والمثل الإنسانية الرفيعة وكافة

---

(١) De Gobineau: Inequality of Human Races.

المناقب والصفات مايعلو بهم عن عباد الله أجمعين ، ويجعلهم خير مَن فى الوجود قدرة وعظمة .

ولكتاب جوبينو هذا أثر ملحوظ فى كل دعوة تفرق بين العناصر وتفاوت بين الأجناس ، سواء بين الآريين والساميين ، أو بين الشماليين والجنوبيين ، أو بين الغربيين والشرقيين ، أو بين البيض والسود.

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد فى حديث سماه « سبعة كتب أثرت فى حضارة القرن العشرين »[1] كان من بينها كتاب جوبينو : « أما جوبينو الفرنسى فهو أول القائلين فى العصر الحديث بتفاوت العناصر البشرية ، وأن بعض العناصر مخلوق للسيادة ، وبعضها مخلوق للخضوع ، وهو رأس البدعة التى تشيد بالمزايا الآرية ، وتفسيره للطبقات أنها تنتمى إلى عناصر مختلفة ، فالعنصر الصراح منها هو الذى يسود ، والعنصر المدخول أو الوضيع هو الذى يساد ، وعنده أن « الفرانك » الذين سميت بهم فرنسا هم الأحرار حقاً كما يؤخذ من اسمهم ، وأما سائر الشعب فهم من سلالات وضيعة خلقت للطاعة والانقياد »[2] وجوبينو نفسه ينتمى مع النبلاء الفرنسيين إلى قبائل « الفرانك » الجرمانيين الذين كانوا أبناء البلاد الأصلاء عدة قرون . ثم تبعه رينان بكتابه « التاريخ العام للغات السامية » الذى فصل فيه دعوى المفاضلة بين الجنسين الآرى والسامى . وبعدهما تواترت الدعاوى على نحو ماأسلفنا .

وجرياً على خطة هذا الكتاب فى معالجة القضايا من هذا القبيل سنتجنب كل محاولة من شأنها أن تقبل القضية على ماهى عليه . فنحللها إلى أجزائها ونتحل بها إلى عناصرها فنرفض جزءاً ونقبل آخر ، وتستبعد عنصراً وتستبقى آخر وهكذا .

وإنما تعالج هذه القضية بالنظر إليها نظرتنا إلى الكائن الحى فى أطوار تكوينه ومراحل حياته باعتباره كلا ووحدة ، له سماته ، وملامحه ، ووراءه بواعثه الكامنة ، وتياراته الخفية . فعن طريق هذا الاتصال الحى المباشر نتمكن من استخلاص قانون حياته الفعال .

---

(١) انظر « مختارات الإذاعة » بعنوان « مطالعات » .

(٢) عباس محمود العقاد : مطالعات ص ٦٠ .

ومن ثم فلن نسأل ماهو الصواب وماهو الخطأ ، بقدر ما سنسأل ماهى العلاقة السببية بين أصحاب الدعوى وواقع مجتمعهم باعتبارهم نتائج وأسبابا فى آن معاً . تلك السببية المتبادلة التى لولاها لما قامت الدعوى بمافيها من خطأ أو صواب .

فواقع المجتمع الأوربى إبان القرن التاسع عشر كان حافلا بالصراع والتطلع إلى وضع أحسن ، وكان الصراع يعتمل فى صميم الفرد نفسه لا فى المجتمع فحسب .. كما كانت البواعث المتصارعة فيه مرآة عاكسة للتوترات العنيفة التى كانت تعانيها المدنية الأوربية فى ذلك الحين .

فهذا الوضع الجديد الذى خرج بها من حدود القارة الأوربية إلى آفاق أوسع تضم أجناساً مختلفة وشعوباً متباينة ، لكل حاضره وغابره الخاص به ، مما أدى إلى خلق مشكلات سياسية واقتصادية ودينية وثقافية تزداد تعقيداً كلما ازداد الاستعمار توسعاً .

وباتت المدنية الأوربية فى حاجة ماسة إلى إمدادات « الجيش الثانى » ليقوم بالغزو الثقافى إلى جانب الغزو الحربى .. ويواجه « الغزو المزدوج » كل هذه الأمور والمشكلات .

وعلى ذلك لم يكن ظهور دعوى العنصرية نتيجة لعوامل العصبية الفردية ، أو ثمرة لأهواء شخصية ، أو نتيجة لدراسة متواصلة أدت إلى كشف علمى .. وإنما كانت نتيجة لمتطلبات اجتماعية ، واحتياجات قومية ، فرضها واقع المجتمع الأوربى فى هذه الأحايين .

***

وسنقتصر على ثلاثة عوامل كانت أعمق أثراً فى اختلاق هذه الدعوى ، وكان لفرنسا خاصة من كل منها أوفى نصيب :

١ – حركة تحرير الرقيق .

٢ – حركة الاستعمار .

٣ – حركة « رد فعل » مبادئ الثورة الفرنسية .

فالذين قاموا بالدعوة إلى تحرير الرقيق بنوا دعوتهم على المساواة بين البشر ، واستنكروا أن يباع الإنسان ويشترى فى الأسواق كأنه من الحيوان الأعجم ، وهو ومن يبيعه ويشتريه سواء فى جميع الحقوق الآدمية .

فكان المتجرون بالرقيق يردون هذه الدعوة بإنكارهم للمساواة بين البيض والسود ، وقيام الفوارق الأصيلة بين السادة والعبيد ، وقد كانت لفرنسا تجارة واسعة فى الرقيق الأسود ، والخلاسيين ، وكانت جزائر هايتى التى كانت معروفة يومئذ باسم جزائر القديس دومنيك تابعة لفرنسا ومركزا من أهم مراكز الاتجار بالرقيق على اختلاف أنواعه ، وظلت فرنسا تقاوم حركة التحرير حتى فى إبان الثورة الفرنسية ، ولم تشترك فى حركة التحرير إلا بعد خروج تلك الجزائر من حكمها وعودة « نابليون » من جزيرة « إلبا » فى سنة ١٨١٥ خلال حكومته المعروفة التى اشتهرت باسم حكومة الأيام المائة ، فجاء هذا القرار اليائس بعد فوات الأوان [١].

وهذا مايفسر لنا ظهور الدعوة فى المجتمع الفرنسى وسبقه إليها ثم شيوعها فى المجتمع الأوربى من بعد . على أن الذى عمل على تماسكهم جميعا هو العامل الثانى .

ذلك « أن حركة الاستعمار قامت على مايسمونه برسالة الرجل الأبيض أو بحثه فى حكم الأجناس الأخرى لامتيازه عليها فى العقل والخلق والصفات النفسية ، وكانت فرنسا يومئذ تنشئ « امبراطورية المستعمرات » ويؤيدها العلماء والأدباء ، ومنهم رينان على الخصوص ، فهو الذى أنحى على الثورة الفرنسية فى رسائله عن مسائل العهد Contemporary questions لاعتقاده أنها صدت حركة الاستعمار وهى عنده خير علاج تعتمد عليه الأمة الفرنسية فى مكافحة النزعات الاشتراكية ، وقد ذكر فى كلامه عن الإصلاح الفكرى والأخلاقى بعد سنة ١٨٧١ أن حرب فرنسا وألمانيا كانت صدمة قاسية له ؛ لأنها بددت الحلم

---

(١) عباس محمود العقاد : بين الكتب والناس ص ٥٩

الذى كان ينوط به رجاءه فى خلاص العالم ، وفحوى ذلك الحلم أن تعقد الأمتان مع إنجلترا حلفا مقدسا لتدبير شئون الأمم المختلفة »[1].

وبلغت الدعوة بالعامل الثالث الذروة والأوج ، فقد راق الألمان أن يشيد الفرنسيون بعراقة أصولهم ، وامتياز جنسهم الجرمانى بالسيادة والحرية فتهافتوا على الدعوة ونقلوها إلى بلادهم وأذاعوها فى العالم أجمع .

« ومن فرنسا أيضا نجمت الحركة التى يسمونها بحركة « رد الفعل » بعد عهد الثورة الأولى ، فقام فيها جوبينو وأمثاله يعلنون بطلان المساواة بين الطبقات ، وينادون بحق النبلاء فى حكم الدهماء ؛ لما بينهم من التفاوت فى العنصر والاستعداد للرئاسة والقيادة ، فجاءت دعوى العنصر الحاكم ردا على دعوى المساواة بين الحاكمين والمحكومين ، وشاع « رد الفعل » هذا فى فرنسا نفسها قبل أن يشيع فى غيرها من الأقطار »[2].

هكذا وجدت فلسفة العنصر ، وتلك كانت الظروف التى أدت إلى ابتداعها واختلاقها ، والتى يرجع إليها رواجها ، وهى كما رأينا ظروف وقتية محلية شاء لها عبث الأقدار أن تجد طريقها فى طول البلاد وعرضها . وما هى إلا واحدة أو كلمح بالبصر حتى ذاعت وشاعت وماهى إلا مصالح ولازيادة .. كتب لها الشمول والتعميم ..ومظلوم العلم إن أقحمناها فى زمرته ، ومظلوم الحق إن أدرناها فى فلكه .

نعم ، هكذا وجدت بين الأوربيين ، وهكذا فرضت على غيرهم من الأمم ؛ لأنها ترضى نزعتهم فى الاستعلاء ، وتحقق رغبتهم فى الاستعباد ، أما صوت العقل ، أما نوازع الضمير ، أما قداسة العلم فلاشىء أمام عوامل العصبية ، وشحنات العواطف والهوى ، وإرادة الاستعمار .

وهكذا قدر علينا أن يكون جنسنا هو السامى الوضيع إن كان البشر إلى سامى وآرى ، وقطرنا هو الشرق المغلوب إن كان العالم إلى شرق وغرب ، ونصيبنا هو الجنوب المحكوم إن كانت الدنيا إلى جنوب وشمال .

---

(١) عباس محمود العقاد : بين الكتب والناس ص ٥٩

(٢) المصدر نفسه : ص ٦٠

المهم أن يكونوا هم السادة الأعلوان ، ونحن المسُودين الأذْنَيْنَ ، وبين الطرفين برزخ لاتختلط عليه البروج ، ولا يعدوه أولئك إلى هؤلاء .

كلا -ياسادة : ماهكذا يكون المعيار ، وقولة الإنصاف قالها العلم الحديث بلسان العالم النمسوى « فردريك هرتز » اسمعه يقول « لاترى أحدًا يزعم أن هناك فجوة لاتعبر بين الحمص الأحمر والحمص الأزرق أو بين الحصان الأبيض والحصان الأسمر . أما فى بنى الإنسان فالفرق اليسير – بالغا مابلغ من التفاهة – كاف لأن ينشىء من الأوهام الجنسية والعصبيات الشعبية أسخنها وأنآها عن الحقيقة . وما الفرق هنا مع هذا إلا اختلاف فى الدرجة لا فى الجوهر . فقد يرينا المجهر أن الفروق الكثيرة بين ألوان بنى الإنسان إنما هى فروق فى درجات التجمع والتوزع فى مادة صبغة واحدة متماثلة فى الجميع » .

كما فاتكم ياسادة أن العوامل الطبيعية قد تنشئ المزايا الموقوتة فى بعض الأقوام ، ولكنها تعود فتنشئ هذه المزايا بعينها فى الأقوام الآخرين إذا صادفتهم تلك العوامل وأحدثت فيهم آثارها ، وأنه مامن محمدة تدعى لأوروبا إلا وللأجناس الأخرى مثيلاتها ، وما من مذمة تدعى على الأجناس الأخرى إلا وفى وأوربا مثيلاتها ؛ فالعوامل الطبيعية قد تسلب كما قد تعطى .

« أليست المدنية الإنسانية تغمر العالم موجة فى إثر موجة ، والموجات تارة يكون سراها من هنا إلى هناك ، وطوراً من هناك إلى هنا ؟ خرافة أن يقال فى الحضارة البشرية : شرق وغرب ، وشمال وجنوب ، والصدق أن يقال : إنسان العصر وحضارته ، أينما كان الإنسان على وجه الأرض ، وأياما كانت حضارته »[1].

ونحن واجدون عند الأستاذ عباس محمود العقاد تأييداً وتأكيداً لفكرتنا ، إذ يقول من خلال نظرته التاريخية « وإنما امتاز الإغريق بالبحوث الفلسفية فى زمن من الأزمان لسبب واضح : هو أن هذه البحوث كانت مباحة عندهم حيث كانت تمتنع على غيرهم من أبناء الدول الشرقية العربية ، وهى لم تكن مباحة لهم لمزية

(١) زكى نجيب محمود : شروق من الغرب ص٤

أصيلة فى طبيعة التركيب كما وهم القائلون بذلك الرأى المتعجل العسوف ، ولكنها أبيحت لهم لأن بلادهم نشأت وتطورت دون أن ينشأ فيها ملك قوى وكهانة قوية ، ولو قامت عندهم الدولة القوية والكهانة القوية كما قامت فى مصر وبابل لكان شأنهم فى أسرار الدين والمسائل الإلهية كشأن البابليين والمصريين » [1].

ويضرب الأستاذ الكبير لذلك مثالين ممتازين :

واحدًا من الأوربيين قال فيه : « حدث للأوربيين ماحدث فى الشرق حين قامت فى بلادهم الكهانات القوية ، وبسطت سلطانها على التعليم ومعارض البحث فى حقائق الدين وأسرار الطبيعة وقوانين الوجود ، فبطلت الفلسفة والدراسات العلمية فى القرون الوسطى ، وحيل بين الناس وبينها إلا بإذن من رجال الدين فى حدود النصوص المقررة كما كانوا يفهمونها ويبيحون فهمها ، واستطاعت الكهانة الأوربية أن تفعل ذلك وهى حديثة العهد لم تبلغ من العراقة مبلغ الكهانة المصرية أو البابلية ، إذ كانت تعد أعوامها بالعشرات أو المئات القليلة وقد غبرت على الكهانات القديمة ألوف من الأعوام بعد ألوف » [2].

والآخر عن اليونانيين قال فيه : « من الواضح أن فيض البحوث الفلسفية عند الإغريق لم يكن ذلك الفيض الدافق العرم الذى يحطم القيود ويقتحم السدود ؛ لأن سداً من أضعف السدود التى ابتليت بها الأمم الشرقية فى تاريخها الطويل قد غيض مافاض من قرائح اليونان فى بضعة أجيال معدودات ، فانقضى عصر الفلسفة اليونانية أمام صدمة مقدونية وأخرى رومانية ، وعاش الإغريق بعد ذلك فى بلادهم دون أن يظهر منهم فيلسوف واحد إلى هذه الأيام » [3].

وفى نهاية المطاف يقول الأستاذ العقاد مايمكن اعتباره نظرة علمية سليمة « أما القسطاس المستقيم فى هذه المسألة التى حاقت أباطيلها بالأوربيين ، كما حاقت بالشرقيين فهو ثبوت الاختلاف بين الأجناس البشرية وثبوت الأسباب الطبيعية فى

---

(١) عباس محمود العقاد : أثر العرب فى الحضارة الأوربية ص ٨٥

(٢) المصدر نفسه : ص ٨٦

(٣) عباس محمود العقاد : أثر العرب فى الحضارة الأوربية ص ٩٠

تعليل هذا الاختلاف ، فكل ماجاز على الشرقيين من هذه الأسباب فقد جاز مثله من قبلُ ، ويجوز مثله من بَعْدُ على الأوربيين وغير الأوربيين » [1] وتتواتر الأقوال فى هذا السبيل ، وإليك بعضاً مما قيل ، لا من الشرقيين فحسب ، بل وأيضاً من الغربيين ، وهذه طائفة من آراء الشرقيين :

ويقول الدكتور زكى نجيب محمود : « لا شرق هناك ولا غرب ، ولا شمال ولا جنوب فى خصائص البشر وصفاتهم فكل شعب فى الدنيا ككل شعب آخر من حيث الاستعداد والفطرة ، وتبقى بعد ذلك ظروف اقتصادية وسياسية قد توجد فى الشرق أو الغرب ، فى الشمال أو الجنوب على السواء ، فهى تظهر هنا مرة وهناك مرة » [2].

ويقول الدكتور إبراهيم مدكور : « غير أنه لحسن الحظ قد انقضى الزمن الذى كان يتباهى فيه بأن فى الإمكان أن تستخلص صفات أى شعب العقلية ومميزاته الفكرية من بيئته الجغرافية ، أو من الجنس الذى ينتمى إليه !

وبدا « علم النفس الجمعى » أدق وأعقد مما يظن ، وما كان أيسر أن ترسل دعاوى عامة كالتى قدمناها على علاتها ، وأن تطلق إطلاقا دون سند واضح ولا دعامة قوية ، ولكن المنهج العلمى الصحيح أضحى يمقت أمثال هذه الدعاوى وينكرها [3].

ويقول الأستاذ أبو خلدون ساطع الحصرى « إن إرجاع الفروق التى تشاهد بين سجايا الأقوام إلى اختلافات أجناسها وعروقها ، والقول بأن الأجناس الفطرية يمتاز بعضها عن بعض بأوصاف فطرية وراثية ، مما لايقره العلم الحديث بوجه من الوجوه » [4].

وهذه طائفة من آراء الغربيين :

---

(١) عباس محمود العقاد : بين الكتب والناس ص ٦٥

(٢) زكى نجيب محمود : شروق من الغرب ص ٢٢١

(٣) إبراهيم مدكور : فى الفلسفة الاسلامية ص ١١

(٤) أبو خلدون - ساطع الحصرى : آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية ص٦٢ .

فمثلا المفكرون الألمان وعلى رأسهم هردر وجيته ونوفاليس كانوا يسفهون آراء القائلين بالتفرقة بين الأجناس ، ومن المؤلفات التى شاعت فى ذلك العصر كتاب هردر عن فلسفة الفوارق بين الأجناس البشرية ، وفحواه أنه « لاتوجد أجناس أربعة أو خمسة كما يقال ، وأن الفوارق بينها ليست بالفوارق الحاسمة التى تدل على انفصال ، ولكن تتداخل وتتضارب من جميع الألوان » .

بل إن الشاعر الألمانى الكبير جيته وقف إلى جانب الشرق وعمل على إكباره إذ قال – وكان وزيرا للمعارف فى إمارة فيمار – إنه لو استطاع لأوجب على الناس أن يوجهوا إلى الشرق عينى كل مولود يخرج من بطن أمه .. إلى هذا العالم الشائق المخيف .

وبعد أن تكلم عن الشرق تكلم عن الإسلام عموماً ..

وقد سحرت كلمة الإسلام روح جيته ؛ وكان شغوفاً بالاطلاع على دائرة المعارف الإسلامية ، وقرأ القرآن تفقها وتشوفا ، وأعاد قراءته مما حدا به إلى القول إذا كان هذا هو الإسلام ، أفلا نكون كلنا مسلمين ؟ » .

وبعد أن تكلم عن الشرق وعن الإسلام عموما تكلم عن محمد النبى بصفة خاصة ، ذلك أنه قرأ السيرة النبوية فانفعل بها وأثرت فيه فشرع فى كتابة رواية تمثيلية فى سيرة الرسول . وجمع لها المواد اللازمة ووضع لها الصورة الإجمالية ، واستطاع أن يرسم فصولها من أيام الجاهلية إلى الهجرة .. بيد أنه لم يتمها .. ومع ذلك اسمعه يقول فى مكالماته المشهورة مع إكرمان :

« أنت ترى أن هذا التعليم لايخطئ أبدا . ونحن بكل ماأوتينا من شرائع لانقدر بل أقولها بوجه عام : إن واحدا من البشر لايقدر على أن يذهب إلى ماهو أبعد من هذا » .

ونحن لانعرف شهادة فى إنصاف محمد النبى العربى أبلغ مما يقوله الشاعر الفرنسى الكبير لامارتين .

بل لانقرأ لشرق ولا لعربى ولا لمسلم كلاما أكثر من هذا الكلام حماسة وغيرة .

أو كما يقول العالم المفضال حيدر بامات فى كتابه عن تاريخ الحضارة الاسلامية [1]: إن من التهور بمكان أن نحاول إضافة شيء إلى هذا الوصف للنبى الذى خطه لامارتين ، قال :

« لم يظهر قط رجل عقد نيته ، طوعاً أو كرها ، حول غاية أعظم سموا ، كانت هذه الغاية فوق قدرة البشر ، وهذه الغاية هى هدم الخرافات القائمة بين الخلق والخالق ، ورد الرب إلى الإنسان والإنسان إلى الرب ، وإصلاح المبدأ العقلى السليم حول الألوهية فى خواء آلهة الوثنية الغلاظ المشوهين .

« وإذا كان عظم المقصد وصغر الوسائل واتساع النتيجة مقاييس عبقرية الرجل الثلاثة فمن ذا الذى يجرؤ ، من الناحية البشرية ، على تشبيه رجل عظيم من رجال التاريخ الحديث بمحمد ؟ »

« فيلسوف ، خطيب ، رسول ، مشترع ، محارب ، فاتح لأفكار ، مصلح لعقائد عقلية ، محى لعباده بلا صور ، مؤسس لعشرين دولة دنيوية ، ومنشيء لدولة روحانية ، ذلك هو محمد ، فمن هو الرجل الذى ظهر أعظم منه عند النظر إلى جميع المقاييس التى تقاس بها عظمة الإنسان ؟ » [2].

وجاء فى تعليق هام للدكتور غوستاف لوبون على محاضرة للفيلسوف الفرنسى أرنست رينان حاول فيها أن يثبت مناقضة الإسلام للعلوم وألقاها فى السوربون فى ٢٩ من مارس عام ١٨٨٣ م قال الدكتور غوستاف لوبون ، يقول :

« حينما تلتقى مبتسرات الوراثة والثقافة فى العالم المفضال فلا يدرى على أيهما يعتمد فى وزن الأمور يتجلى فيه مايجتمع فى شخص واحد من الذاتية القديمة التى هى وليدة الماضى ، والذاتية العصرية التى هى وليدة المشاهدة الشخصية ، فيصدر عنه من الآراء المتناقضة مايستوقف النظر ، ومن ذلك التناقض المثال البارز الذى يجده القارىء فى الخطبة التى ألقاها الكاتب اللبق والعالم الفاضل مسيو رينان ، فقد أراد مسيو رينان أن يثبت فيها عجز العرب ، ولكن ترهاته كانت تنقض بما يجيء فى الصفحة التى تليها ، فبعد أن قال مسيو رينان مثلا :

---

(١) انظر الترجمة العربية للكتاب للأستاذ عادل زعيتر بعنوان « مجالى الإسلام » .

(٢) حيدر بامات : مجالى الإسلام ص٢٢ ، ٢٣

« إن تقدم العلوم مدين للعرب وحدهم مدة ستمائة سنة » عاد فزعم أن الإسلام اضطهد العلم والفلسفة ، وقضى على الروح فى البلاد التى دانت له .. ثم يظهر الكاتب الفاضل مسيورينان أسيفا أحياناً على سوء رأيه فى العرب فيصل إلى النتيجة غير المنتظرة الآتية التى تنم ، كذلك ، على مابين ذاتية الإنسان القيمة وذاتيته العصرية من التنازع ، فيأسف على أنه ليس من أتباع النبى ، ويقول : « إننى لم أدخل مسجداً من غير أن أهتز خاشعاً ، أو من غير أن أشعر بشىء من الحسرة على أننى لست مسلماً »[1].

لقد انتصر السلاجقة على المسلمين فى القرن الحادى عشر ، ولكنهم أسلموا .

ولقد انتصر المغول على المسلمين فى القرن الثالث عشر ، ولكنهم أسلموا أيضاً .

نعم .. إن الإسلام ينتصر ولو لم ينتصر المسلمون ..

وبعد ..

فهكذا ولدت الفكرة الفقيرة البائسة « فكرة العنصرية » ، وهكذا كانت حياتها كشعاع الشمس يسطع على جناح طائر ، وهكذا ماتت ولم يبق لها إلا أن تدفن أو تحنط فتوضع فى متحف الحضارات .

فعفاء على الآرية والسامية ، وسلام على الإنسانية .

---

(١) حيدر بامات : مجالى الإسلام . ص ٧٧